جبر الخواطر حتّى في مواطن الفرح

ليس جبر الخواطر محصوراً في حالات الألم والجراح والأسى، بل وحتّى في حالات الفرح، فما أجمل أن تُبارك لمن رُزق بفلذة كبدٍ طال انتظاره لها، ما أجمل أن تزرع مزيداً من الابتسامة على وجه شابٍّ يُزفّ إلى عروسه، ما أجمل أن تُبارك لإنسانٍ بمركوبٍ أو سكنٍ أو ملبوسٍ، ما أجمل أن تُسعد إنساناً اشترى عطراً بكذا وكذا لتشمّه أنت وغيرك بكلمة ثناءٍ على ذوقه الرّفيع وعلى إحساسه المرهف الأنيق واختياره المتألّق الموفَّق، ففي توبة كعبٍ صورةٌ عمليّةٌ من صور التّعاطف الاجتماعيّ لجبر الخاطر، حيث ذهب عددٌ من المبشّرين، فناداه أحدهم قبل أن يصل إليه، يقول كعبٌ: سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَآذَنَ رَسُولُ اللهَّ _ ﷺ _ بِتَوْبَةِ اللهَّ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ، وتلقّاه النّاس فوجاً فوجاً يهنّئونه بالتّوبة، قال: وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهَّ ﷺ ، فَيَتَلَقَّانِي

النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ _ ﷺ _، قَالَ: رَسُولُ اللهِ _ ﷺ _، وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: (أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ).

كلّ الصّحابة تفاعلوا معه، لكنّه لا ينسى موقفاً فريداً لطلحة، قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ _ ﷺ _ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

تُرى كم من المواقف تمرّ بنا! وكم ثناءً نسمعه، أو دفاعاً نلقاه! ثمّ لا نلبث نشكر لهذا الإنسان صنيعه أو مديحه في أعماقنا، (ولا ننساها) له.

ولكن ما الّذي يجعل مساندةً واحدةً متفرّدةً، ومديحاً بعينه له الأثر الأعمق؟ في الغالب يكون هذا تبعاً للموقف نفسه ومدى تفرده، ولمدى حاجة الإنسان إليه، والأثر الّذي أحدثه.

ما الّذي ميّز موقف طلحة بن عبيد الله _ رضي الله عنه _ عن غيره من الصّحابة؟ ففي الموقف أعلاه، معلومٌ أنّ كعب بن مالك ورفقاءه الثّلاثة _ ممن خُلِّفوا _ قد عانوا مقاطعة النّبيّ _ ﷺ _ والمسلمين لهم على مدى أربعين

يوماً وليلةً، فلمّا تاب الله عليهم، وجاؤوا إلى المسجد النّبويّ، وجاء المسلمون يهنّئونهم؛ أقبل صحابيٌّ واحدٌ وهو طلحة بن عبيد الله _رضي الله عنه_ وقام بتصرّفٍ لم يسبقه إليه أحد، ولا كرّره شخصٌ بعده، فكان أن كسب قلب كعبٍ _رضي الله عنه_ لدرجة أنّ كعباً يحكي هذه التّجربة لولده، دون أن يُغفل ذِكر موقف طلحة _رضي الله عنه_.

أوّل أمرٍ ميّز تصرّف طلحة _رضي الله عنه_ عنه هو أنّه هرول إليه، أي: أسرع الخطى، وصافحه.

أمّا الشّأن الثّاني: فهو أنّه لم يقم له أحدٌ آخر من كلّ المهاجرين إلّا هو!

وثالثًا: وهو عُمق الأثر الّذي تركه هذا العمل على قلب كعبٍ _رضي الله عنه_، حيث كان في أمَسِّ الحاجة لإحساسه بالانتماء والقرب من إخوانه من المسلمين، بعد أكثر من شهرٍ من المقاطعة التّامّة.

لذا أقول لا تكتفِ بمجرّد العطاء، وكن متفرّدًا سباق بالخير حريصاً على أن تكون الأول لا الثاني في الخير والعطاء، وهذا كان دأب الصحابة

ـ رضي الله عنهم ـ بل هو منهج قرآني رباني، يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾[30]

ويقول سبحانه وتعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ ﴾[31]

بل إن من العجيب جدا أن رسول الله ـ ﷺ ـ جبر بخواطرنا نحن الذين نحبه ونشتاق إليه ونتمنى لو كنا إلى جانبه نذود عنه وننافح عن دعوته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ووَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا"، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ أَصْحابِي، وَإِخْوَانُنَا لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ"، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟"، فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ:" فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ".

---

[30] آل عمران: ١٣٣

[31] الحديد: ٢١

[32]فأخبر حبيبي رسول الله بأنه يشتاق إلينا، إلى إخوانه اللذين يأتون بعده ويؤمنون به ولم يروه _ ﷺ _، وإنا والله لنشتاق إلى رؤيته والحديث معه،ووالله إني لأشتاق إلى تقبيل يده ورأسه، فاللهم لا تحرمنا رؤيته.

[32] رواه مسلم